أن يُنبِّهنا إلى هذه النعم ، ويلفت نظرنا إليها ؛ لأننا أهل غفلة .

وقوله : ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ [الفرقان] أي : شكراً . فهي صيغة مبالغة في الشكر .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ(١) قَالُوا سَلَامًا (٦٣) ﴾

يعطينا الحق - تبارك وتعالى - صورة للعبودية الحقة ، ونموذجاً للذين اتبعوا المنهج ، كأنه - سبحانه وتعالى - يقول لنا : دَعْكُم من الذين أعرضوا عن منهج الله وكذَّبوا رسوله ، وانظروا إلى أوصاف عبادي الذين آمنوا بي ، ونفَّذوا أحكامي ، وصدَّقوا رسولي .

نقول : عباد وعبيد . والتحقيق أن (عبيد) جمع لعبد ، وأن (عباد) جمع لعابد مثل : رجال جمع راجل : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا .. (٢٧) ﴾ [الحج] إذن : عبيد غير عِباد .

وسبق أن تحدثنا عن الفَرْق بين العبيد والعباد ، فكلنا عبيد لله تعالى : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، فما دام يطرأ عليه في حياته ما لا يستطيع أنْ يدفعه مع أنه يكرهه فهو مقهور . فالعبد الكافر الذي تمرَّد على الإيمان بالله ، وتمرَّد على تصديق الرسول ، وتمرد على أحكام الله فلم يعمل بها .

فهل بعد أن ألفَ التمرد يستطيع أن يتمرد على المرض إنْ أصابه ؟ أو يستطيع التمرد على الموت إنْ حلَّ بساحته ؟ إذن : فأنت

(١) الجهل : الطيش والسفه والتعدي بغير حق . والجهل أيضاً : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . ويتحدد معنى الجهل بما يناسب المقام . والمقصود بالجاهلين هنا : السفهاء . [القاموس القويم ١/ ١٣٤] .

عبد رغماً عنك ، وكلنا عبيد فيما نحن مقهورون عليه ، ثم لنا بعد ذلك مساحة من الاختيار .

أما المؤمن فقد خرج عن اختياره الذى منحه الله فى أن يؤمن أو يكفر ، وتنازل عنه لمراد ربه ، فاستحق أن يكون من عباد الله ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ..﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان] فنحن وإنْ كنا عبيداً فنحن سادة ؛ لأننا عبيد الرحمن ؛ لذلك كانت حيثية تكريم الله لرسوله ﷺ فى الإسراء هى عبوديته لله تعالى ، حيث قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] . فالعبودية هى علة الارتقاء .

فلما أخلص رسول الله العبودية لله نال هذا القُرْب الذى لم يسبقه إليه بشر .

لذلك وصف الملائكة بأنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[الأنبياء] وباستقراء الآيات لم نجد سوى آية واحدة تخالف فى ظاهر الأمر هذا المعنى الذى قُلْناه في معنى العباد ، وهى قوله تعالى فى الكلام عن الآخرة : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ ..﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان]

فقال للضالين (عبادى) وهى لا تُقال إلا للطائعين ، لماذا ؟ قالوا : لأن فى القيامة لا اختيارَ لأحد ، فالجميع فى القيامة عباد ، حيث انتفى الاختيار الذى يُميِّزهم .

والعلماء يقولون : إن العباد تُؤخَذ منها العبادية ، وأن العبيد تُؤخَذ منها العبودية : العبادية فى العباد أن يطيع العابد أمر الله ، وينتهى عن نواهيه طمعاً فى ثوابه فى الآخرة ، وخوفاً من عقابه فيها ، إذن : جاءت العبادية لأخذ ثواب الآخرة وتجنُّب عقابها .

أما العبودية فلا تنظر إلى الآخرة ، إنما إلى أن الله تعالى تقدّم

بإحسانه على عبيده إيجاداً من عدم ، وإمداداً من عُدْم ، وتربية وتسخيراً للكون ، فالله يستحق بما قدّم من إحسان أن يُطاع بصرف النظر عن الجزاء في الآخرة ثواباً أو عقاباً .

أما العبودة فهي : ألاَّ ينظر العبد إلى ما قدَّم من إحسان ، ولا ما أخّر من ثواب وعقاب ، وإنما ينظر إلى أن جلال الله يستحق أنْ يُطاع ، وإنْ لم يسبق له الإحسان ، وإنْ لم يأتِ بعد ذلك ثواب وعقاب .

وإن كانت العبودية مكروهة في البشر كما قال أحد الساسة[1] : متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ذلك لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خَيْر عبده . أما العبودية لله تعالى فعزٌّ وشرف ، حيث يأخذ العبد خَيْر سيده ، فهي عبودية سيادة ، لا عبودية قهر .

فحين تؤمن بالله يعطيك الله الزمام ؛ يقول لك : إنْ أردت أنْ أذكرك فاذكرني ، وفي الحديث القدسي : « مَنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، ومَنْ ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم »[2] .

وإنْ كان - سبحانه وتعالى - يستدعيك إلى خَمْس صلوات في اليوم والليلة ، فما ذلك إلا لتأنسَ بربك ، لكن أنت حر تأتيه في أيِّ وقت تشاء من غير موعد ، وأنت تستطيع أن تحدد بَدْءَ المقابلة

(١) هو : أحمد عرابي بن محمد عرابي ، زعيم مصري ، ممن تركت لهم الحوادث ذكراً في تاريخ مصر الحديث . ولد في قرية « هرية رزنة » (عام ١٨٤١ م) من قرى الزقازيق بمصر . جاور في الأزهر سنتين ، ثم انتظم في الجيش سنة (١٨٥٥م) وكان عمره ١٤ عاماً حتى بلغ رتبة « أميرالاي » في أيام الخديوي توفيق . توفي ١٩١١ م عن ٧٠ عاماً . انظر (الأعلام للزركلي ١/١٦٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٥١ ، ٣٥٤ ، ٤٠٥) ، والبخاري في صحيحه (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ٧٥٣٧) والترمذي في سننه (٣٦٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وقد شرح الشيخ الشعراوي رحمه الله هذا الحديث القدسي في سلسلة « الأحاديث القدسية » (١/١٧-٢٠) بتحقيقنا .

ونهايتها وموضوعها .. إلخ ، فزمام الأمر في يدك .

وقد تعلم سيدنا رسول الله خُلق الله ، فكان إذا وضع يده في يد أحد الصحابة يُسلِّم عليه لا ينزع يده منه حتى يكون هو الذي ينزع يده من يد رسول الله[1] ، وهذا أدب من أدب الحق ـ تبارك وتعالى ـ إذن : فالعبودية لله تعالى عبودية لرحمن ، لا عبودية لجبار .

وأول ما نلحظ في هذه الآية أنه تعالى أضاف العباد إلى الرحمن ، حتى لا نظن أن العبودية لله ذِلَّة ، وأن القرآن كلام رب وُضِع بميزان ، ثم يذكر ـ سبحانه وتعالى ـ صفات هؤلاء العباد ، صفاتهم في ذواتهم ، وصفاتهم مع مجتمعهم ، وصفاتهم مع ربهم ، وصفاتهم في الارتقاء بالمجتمع إلى الطُّهر والنقاء .

أما في ذواتهم ، فالإنسان له حالتان هما محلُّ الاهتمام : إما قاعد ، وإما سائر ، وتُخرج حالة النوم لأنه وقت سكون ، أما حال القعود فالحركة محدودة في ذاته ، والمهم حال الحركة والمشي ، وهذا هو الحال الذي ينبغي الالتفات إليه .

لذلك يوضح لنا ربنا ـ عز وجل ـ كيف نمشي فيقول : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان]

يعني : برفق وفي سكينة ، وبلين دون اختيال ، أو تكبُّر ، أو غطرسة ، لماذا ؟ لأن المشي هو الذي سيُعرِّضك لمقابلة مجتمعات متعددة ، وهذا الأدب الرباني في المشي يُحدِث في المجتمع استطراقاً إنسانياً يُسوِّي بين الجميع .

---

(١) أخرج أبو الشيخ الأصبهاني في كتابه « أخلاق النبي ﷺ وآدابه » ـ ص ٣٦ طبعة الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٢ . عن أنس بن مالك قال : كان ﷺ إذا صافح رجلاً لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده ، ولا يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذي يصرف » .

وفى موضع آخر يقول تعالى فى هذه المسألة : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا.. ﴿١٨﴾﴾ [لقمان] ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء]

وتصعير الخدِّ أنْ تُميله كِبْراً وبَطَراً وأصله (الصعر) مرض فى البعير يصيب عنقه فيسير مائلاً ، ومَنْ أراد أن يسير مُتكبِّراً مختالاً فليتكبر بشيء ذاتى فيه ، وهل لديك شيء ذاتى تستطيع أن تضمنه لنفسك أو تحتفظ به ؟

إنْ كنتَ غنياً فقد تفتقر ، وإنْ كنتَ قوياً صحيحاً قد يصيبك المرض فيُقعدك ، وإنْ كنتَ عزيزاً اليوم فقد تذلّ غداً . إذن : فكل دواعى التكبُّر ليست ذاتية عندك ، إنما هى موهوبة من الله ، فعلامَ التكبُّر إذن ؟!

لذلك يقولون فى المثل (اللى يخرز يخرز على وركه) إنما يخرز على ورك غيره ؟! وأصل هذا المثل أن صانع السروج كان يأتى بالصبى الذى يعمل تحت يده ، ويجعله يمدّ رجْله ، ويضع السرج على وركه ، ثم يأخذ فى خياطته ، فرآه أحدهم فرَقَّ قلبه للصبى فقال للرجل : إنه ضعيف لا يتحمل هذا ، فإنْ أردتَ فاجعله على وركك أنت . كذلك الحال هنا ، مَنْ أراد أن يتكبّر فليتكبّر بشيء ذاتى فيه ، لا بشيء موهوب له .

والمتكبِّر شخص ضُرب الحجاب على قلبه ، فلم يلتفت إلى ربه الأعلى ، ويرى أنه أفضل من خَلْق الله جميعاً ، ولو استحضر كبرياء ربه لاستحى أن يتكبر على خَلْق الله ، فتكبُّره دليل على غفلته عن هذه المسألة .

لذلك يقول الناظم :

فَدَعْ كُلَّ طَاغِيَةٍ لِلزَّمَانِ   فَإنَّ الزَّمَانَ يُقِيمُ الصَّعَرْ

يعنى : سيرَى من الزمان ما يُقوِّم اعوجاجه ، ويُرغِم أنفه .

ومعنى ﴿مَرَحًا..(١٨)﴾ [لقمان] المرح : الفرح ببطر ، والبطر : أنْ تأخذ النعمة وتنسى المنعم ، وتتنعّم بها ، وتعصى مَنْ وهبك إياها ، إذن : المنهيّ عنه الفرح المصاحب للبطر ، وإنكار فضل المنعم ، أما الفرح المصاحب للشكر فمحمود ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا..(٥٨)﴾ [يونس]

وفي موضع آخر يُعلّمنا أدب المشي ، فيقول : ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ.. (١٩)﴾ [لقمان]

وقالوا : إن المراد بالمشي الهَوْن ، هو الذي يسير فيه الإنسان على سجيته دون افتعال للعظمة أو الكِبْر ، لكن دون انكسار وذلّة ، وسيدنا عمر - رضى الله عنه - حينما رأى رجلاً يسير متماوتاً ضربه ، ونهاه عن الانكسار والتماوت فى المشية ، وهكذا فمشْية المؤمن وَسَط ، لا متكبر ولا متماوت متهالك .

ثم تتحدث الآية بعد ذلك عن صفات عباد الرحمن وعلاقتهم بالناس : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا..(٦٣)﴾[الفرقان] والجاهل : هو السَّفيه الذى لا يزن الكلام ، ولا يضع الكلمة فى موضعها ، ولا يدرك مقاييس الأمور ، لا فى الخلُق ولا فى الأدب .

وسبق أن فرّقنا بين الجاهل والأميّ : الأميّ هو خالى الذهن ، ليس عنده معلومة يؤمن بها ، وهذا من السهل إقناعه بالصواب . أما الجاهل فعنده معلومة مخالفة للواقع ؛ لذلك يأخذ منك مجهوداً فى إقناعه ؛ لأنه يحتاج أولاً لأن تُخرِج من ذهنه الخطأ ، ثم تُدخل فى قلبه الصواب .

والمعنى : إذا خاطبك الجاهل ، فحذار أن تكون مثله فى الردّ عليه فتَسفّه عليه كما سَفه عليك ، بل قرّعه بأدب وقُلْ ﴿سَلامًا (٦٣)﴾ [الفرقان] لتُشعِره بالفرق بينكما .

والحق - تبارك وتعالى - يُوضِّح فى آية أخرى ثمرة هذا الأدب ، فيقول : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

وما أجملَ ما قاله الإمام الشافعى[1] فى هذا المعنى :

إذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلا تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إجَابَتِهِ السُّكُوتُ[2]

فَإنْ كَلَّمْتَهُ فرجْتَ عَنْه ... وَإنْ خَلَّيْتَه كَمَداً يمُوتُ

فإنِ اشتد السفيه سفاهة ، وطغى عليك وتجبر ، فلا بُدَّ لك من ردِّ العدوان بمثله ؛ لأنك حلُمتَ عليه ، فلم يتواضع لك ، وظنَّ حلْمك ضعفاً ، وهنا عليك أن تُريه الفرق بين الضعف وكرم الخُلق ، كالشاعر[3] الذى قال :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِى ذُهْلٍ ... وَقُلْنَا القَوْمُ إخْوَانُ

عَسَى الأيامُ أنْ يُرْ ... جِعْنَ قَوْماً كالذى كَانُوا

فَلما صرَّح الشَّرُّ فَأمْـ ... ـسَى وَهُوَ عُرْيَانُ

ولم يَبْقَ سِوَى العُدْوا ... نِ دِنَّاهُمْ كَمَا دَانُوا

مشَيْنا مَشْيَةَ الليْثِ ... غَدا والليثُ غَضْبانُ

---

(١) هو : محمد بن إدريس الشافعى المطلبى ، أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة ، صاحب المذهب الشافعى ، وإليه نسبة الشافعية . ولد فى غزة بفلسطين (عام ١٥٠ هـ) . زار بغداد مرتين ، وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ فتوفى بها (عام ٢٠٤ هـ) عن ٥٤ عاماً . وقبره معروف بالقاهرة . [الأعلام للزركلى ٦/٢٦] .

(٢) هذا البيت ذكره أبو الحسن الماوردى فى « أدب الدنيا والدين » (ص ٢٢٦) ، ولكن عزاه لعمرو ابن على . وانظر : ديوان الإمام الشافعى - طبعة مكتبة ابن سينا ١٩٨٨ ص ٢٨ ، فقد ورد فيه هذان البيتان .

(٣) هو : شهل بن شيبان بن ربيعة بن زمّان الحنفى ، الشهير بالفِنْد الزِّمَّانى ، من بنى بكر بن وائل ، شاعر جاهلى ، كان سيد بكر فى زمانه ، وفارسها وهو من أهل اليمامة . شهد حرب بكر وتغلب وقد ناهز عمره المئة . توفى نحو ٧٠ ق هـ . وسُمِّى الفند لعظم خِلْقته . (الأعلام ٣/١٧٩) .

بضَرْبٍ فيه توهينٌ وتخضيعٌ وإقرانُ
وطَعْنٍ كفم الزِّق[1] غدا والزِّق ملآنُ
وفي الشرِّ نجاةٌ حيـ ـنَ لا يُنجيك إحسانُ
وبعْضُ الحلْم عنْد الجهْـ ـل للذِّلَّة إذْعَانُ

وللإمام علي كرَّم الله وجهه :

إذَا كُنْتُ مُحتاجاً إلى الحلْم إنّني إلى الجهْلِ في بَعْض الأحايين أحْوجُ
ولي فَرسٌ للحلْم بالحلْم مُلْجَمٌ وَلِي فَرَسٌ للجَهْل بالجهْل مُسْرَجُ
فَمَنْ رَامَ تَقْويمي فَإنّي مُقوّمٌ وَمَنْ رَامَ تَعْويجي فَإنّي مُعوّجُ

ومعنى : ﴿ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان] قالوا : المراد هنا سلام المتاركة ، لا سلام الأمان الذي نقوله في التحية (السلام عليكم) فحين تتعرَّض لمن يؤذيك بالقول ، ويتعدى عليك باللسان تقول له سلام يعني : سلام المتاركة .

وبعض العلماء يرى أن كلمة ﴿ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان] هنا تعني المعنيين : سلام المتاركة ، وسلام التحية والأمان ، فحين تحلُم على السَّفيه فلا تُجاريه تقول له : لو تماديتُ معك سأوذيك ، وأفعل بك كذا وكذا ، فأنت بذلك خرجتَ من سلام المتاركة إلى سلام التحية والأمان .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ [القصص]

ألم يقُلْ إبراهيم - عليه السلام - لعمه آزر لما أصرَّ على كُفْره :

(١) الزق : السقاء ، وهو كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه ، وهو من الجلد . [لسان العرب - مادة : زقق] .

﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم]

والمعنى : لو وقفتُ أمامك لربما اعتديتُ عليك ، وتفاقمتْ بيننا المشكلة .

وبعد أن تناولتْ الآيات حال عباد الرحمن في ذواتهم ، وحالهم مع الناس ، تتحدث الآن عن حالهم مع ربهم :

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ ﴾

والبيتوتة تكون بالليل ، حين يأوى الإنسان إلى بيته بعد عناء اليوم وسَعْيه ، وبعد أن تقلَّب في ألوان شتَّى من نِعَم الله عليه ، فحين يأوى إلى مبيته يتذكر نِعَم الله التي تجلَّتْ عليه في ذلك اليوم ، وهي نِعَم ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله ؛ لذلك يتوجَّه إليه سبحانه بالشكر عليها ، فيبيت لله ساجداً وقائماً .

كما قال سبحانه : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر]

وقال سبحانه : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ[1] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات]

لكن ، أيطلبُ الله تعالى منَّا ألاَّ نهجعَ بالليل ، وقد قال في آية أخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾ [النبأ]

قالوا : ليس المراد قيام الليل كله ، إنما جزء منه حين تجد عندك النشاط للعبادة ، كما قال الحق سبحانه وتعالى في خطاب النبي ﷺ :

(١) الأسحار : جمع سَحَر ، وهو الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر . [القاموس القويم ٣٠٥/١] .

﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝ ﴾ [المزمل]

حتى قال ابن عباس ﷺ: مَنْ صلّى بعد العشاء ركعتين فأكثر كان كَمَنْ بَاتَ لله ساجداً وقائماً[1] ، فربُّك يريد منك أن تذكره قبل أن تنام ، وأن تتأمل نِعَمه عليك فتشكره عليها .

وذكر سبحانه حالتي السجود والقيام ﴿ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝ ﴾ [الفرقان] لأن بعض الناس يصعُب عليهم أنْ يسجدوا ، وآخرين يسهل عليهم السجود ، ويصعب عليهم القيام ، فذكر الله سبحانه الحالتين ليعدل فيهما .

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ ﴾

هذا القول يناسب عباد الرحمن الذين يُفعلون الخيرات ، طمعاً في الثواب ، وخوفاً من العقاب ، فهم الذين يقولون ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ ﴾ [الفرقان] كلمة (غرام) نقولها بمعنى الحب والهُيَام والعشق ، ومعناها : اللزوم ، أي لازم لهم لا ينفك عنهم في النار أبداً ؛ لأن العاقبة إما جنة أبداً ، أو نار أبداً .

فمعنى ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ ﴾ [الفرقان] أي : لازماً دائماً ، ليس مرة واحدة وتنتهي المسألة .

ومنه كلمة (الغريم) ، وهو الذي يلازم المدين ليأخذ منه دَيْنه .

---

(١) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : « مَنْ صلى العشاء الآخرة في جماعة ، وصلى أربع ركعات قبل أن يخرج من المسجد كان كعدل ليلة القدر » أورده المنذري في « الترغيب والترهيب » (٢٠٥/١) وعزاه للطبراني في « المعجم الكبير » .

وكلمة ﴿ اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفرقان] كأنهم متصورون أن جهنم ستسعى إليهم ، وأن بينها وبينهم لدداً ، بدليل أنها ستقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق]

ثم تذكر الآيات سبب هذه المقولة :

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾

ساء الشيء أي : قَبُحَ ، وضده حَسُنَ ؛ لذلك قال تعالى عن الجنة في مقابل هذه الآية : ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الفرقان] وهكذا السوء يلازمه القُبْح ، والحُسْن يلازمه الحُسْن .

وقال : ﴿ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الفرقان] حتى لا يظنوا أن النار فترة وتنتهي ، ثم يخرجون منها ، فهي مستقرهم الدائم ، ومُقامهم الذي لا يفارقونه .

أو أن الحق - سبحانه وتعالى - أراد بهذا نوعين من الناس : مؤمن أسرف في بعض السيئات ولم يَتُبْ ، أو لم يتقبل الله منه توبته ، فهو في النار لحين ، والمستقر هنا بمعنى المكان المؤقت ، أما المقام فهو الطويل .

إذن : النار ساءتْ مستقراً لمن أسرف على نفسه ولم يَتُبْ ، أو لم يتقبل الله توبته ، إنما ليست إقامة دائمة ، والمقام يكون للخالدين فيها أبداً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾

الإسراف : تبديد ما تملك فيما عنه غَنَاء ، فلا نقول (مسرف) مثلاً للذي يأكل ليحفظ حياته ؛ لذلك يقول سيدنا عمر - رضي الله

عنه ـ لولده عاصم[1]: كُلْ نصف بطنك ، ولا تطرح ثوباً إلا إذا استخلقته[2] ، ولا تجعل كل رزقك في بطنك وعلى جسدك[3] .

والإسراف أن تنفق في غير حلٍّ ، فلا سرف في حلٍّ ، حتى إنْ أسرف الإنسان في شيء من الترف المباح ، فإنه يؤدي لنفسه بعض الكماليات ، في حين يؤدي للمجتمع أشياء ضرورية ، فالذي لا يرتدي الثوب إلا (مكْوياً) كان بإمكانه أن يرتديه دون كَيّ ، فكَيُّ الثوب في حقه نوع من الترف ، لكنه ضرورة بالنسبة (للمكوجي) حيث يسَّر له أكل العيش .

والذي يستقل سيارة أجرة وهو قادر على السير ، أو يجلس على (القهوة) كل يوم ليمسح حذاءه وهو قادر على أن يمسحه بنفسه ، هذه كلها ألوان من الترف بالنسبة لك ، لكنها ضرورة لغيرك ، فلا يُسمَّى هذا إسرافاً.

وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان] أي : بين الإسراف والتقتير ﴿قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان] يعني : وسطاً أي : أن الإنفاق وسط بين طرفين ، وقوام الشيء : ما به يقوم ، والحياة كلها تقوم على عملية التوسُّط بين الإسراف والتقتير .

---

(١) هو : عاصم بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي : شاعر ، كان من أحسن الناس خلقاً ، وكان طويلاً جسيماً ، وهو جد عمر بن عبد العزيز لأمه ، ولد ٦ هـ ، وتوفي بالربذة عام ٧٠ هـ عن ٦٥ عاماً . (الأعلام للزركلي ٣/٢٤٨) .

(٢) خَلَق الثوب خُلوقاً : بَلِيَ . وشيء خَلَق : بال . [لسان العرب ـ مادة : خلق] . ومقصود عمر رضي الله عنه أن لا يطرح ابنه ثوباً إلا أن أصبح قديماً بالياً .

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (٧/٤٩٥١) ، وفيه « ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله في بطونهم وعلى ظهورهم » وقد كان عمر بن الخطاب قدوة لابنه في هذا ، فقد أخرج أبو نعيم في الحلية (١/٥٢) أن الحسن البصري قال : خطب عمر بن الخطاب وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتي عشرة رقعة .

وأذكر ونحن تلاميذ كانوا يُعلِّموننا نظرية الروافع ، وكيف نُوسِّط مركزاً على عصا من الخشب ، بحيث يتساوى الذراعان ، ويكونان سواء ، لا تميل إحداهما بالأخرى ، وإذا أرادتْ إحداهما أن تميل قاومتْها الأخرى ، كأنها تقول لها : نحن هنا . فإذا ما علقتَ ثقلاً بأحد الذراعين لزمك أن تطيل الأخرى لتقاوم هذا الثقل .

ويروى أن عبد الملك بن مروان[1] لما أراد أن يُزوِّج ابنته فاطمة من عمر بن عبد العزيز اختبره بهذا السؤال ليعرف ميزانه في الحياة : يا عمر ، ما نفقتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، نفقتي حسنة بين سيئتين[2]، ثم تلا هذه الآية : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان]

فعلم الخليفة أن زوج ابنته يسير سيْراً يضمن له ولزوجته مُقوِّمات الحياة ، ويضمن كذلك المقومات العليا للنفس وللمجتمع .

وسبق أن ذكرنا أن الإنسان الذي ينفق كل دَخْله لا يستطيع أن يرتقي بحياته وحياة أولاده ؛ لأنه أسرف في الإنفاق ، ولم يدخر شيئاً ليبني مثلاً بيتاً ، أو يشتري سيارة .. الخ .

ومصيبة المجتمع أعظم في حال التقتير ، فمصلحة المجتمع أنْ تُنفق ، وأن تدخر ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء]

---

(١) هو : أبو الوليد الأموي ، من أعاظم الخلفاء ودهاتهم ، ولد في المدينة ٢٦ هـ ونشأ بها فقيهاً واسع العلم متعبداً ، استعمله معاوية على المدينة وهو ابن ١٦ سنة . عُرِّبت في أيامه الدواوين ، وضبطت الحروف بالنقط والحركات وهو أول من صك الدنانير في الإسلام ونقش بالعربية عليها . توفي ٨٦ هـ عن ٦٠ عاماً . (الأعلام ٤/١٦٥) .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٧/٤٩٥١) .

وهكذا جعل الله لنا ميزاناً بين الإسراف والتقتير ؛ ذلك لأن المال قوام الحياة ، والذي يُقتِّر يُقتِّر على نفسه وعلى الناس ، فليست له مطلوبات يشتريها ، ويشارك بها في حركة الحياة ، وينتفع بها غيره ، فهذه السلع وهذه الصناعات وهؤلاء العمال ، وأهل الحِرَف من أين يرتزقون إذن وليس هناك استهلاك ورواج لسلعهم ؟لا شكَّ أن التقتير يُحدث كساداً ، ويُحدث بطالة ، وهما من أشد الأمراض فتكاً بالمجتمع .

ولو نظرتَ إلى رغيف العيش ، وهو أبسط ضروريات الحياة ، كم وراءه من عمال وصُنَّاع وزُرَّاع ومهندسين ومطاحن ومخازن ومصانع وأفران ، وهَبْ أنك أحجمت مثلاً عنه ، ماذا يحدث ؟

إذن : ربك يريدك أن تنفق شيئاً ، وتدخر شيئاً يتيح لك تحقيق ارتقاءات حياتك وطموحاتها ؛ لذلك خُتِمتْ الآية السابقة بقوله تعالى :
﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء]

ملومَ النفس لما بددتَ من أموال لم ينتفع بها عيالك ، ومحسوراً حينما ترى غيرك ارتقى في حياته وأنت لم تفعل شيئاً . إذن : فالإنسان ملومٌ إنْ أسرف ، محسورٌ إنْ قتَّر ، والقوام في التوسُّط بين الأمرين ، وبالحسنة بين السيئتين ، كما قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، ولذلك قالوا : خير الأمور الوسط .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

---

(١) سبب نزول الآية : عن عبد الله بن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ : أي الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قال : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك . قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ .. ۝٦٨﴾ [الفرقان] . أورده ابن كثير في تفسيره (٣/٣٦٦) ، والقرطبي في تفسيره (٧/٣٩٥٢) ، والواحدي في أسباب النزول (ص ١٩٢) . والحديث في الصحيحين البخاري ومسلم وأصحاب السنن .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾

وهنا قد يسأل سائل: أبعد كل هذه الصفات لعباد الرحمن ننفي عنهم هذه الصفة ﴿لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ .. ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان] وهم ما اتصفوا بالصفات السابقة إلا لأنهم مؤمنون بالإله الواحد سبحانه؟ قالوا: هذه المسألة عقيدة وأساس لا بُدَّ للقرآن أن يكررها، ويهتم بالتأكيد عليها.

ومعنى: ﴿لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ .. ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان] أي: لا يدعون أصحاب الأسباب لمسبِّباتهم، وهذا هو الشرك الخفيّ. ومنه قولهم: توكلتُ على الله وعليك. فنقول له: انتبه ليس علىَّ شيء، الأمر كله على الله. فقُلْ: توكلت على الله. وإنْ أردتَ فقُلْ: ثُمَّ عليك[1].

ونسمع آخر يقول للأمر الهام: هذا عليَّ، والباقي على الله، فجعل الأصل المهم لنفسه، وأسند الباقي لله. أيليق هذا والمسألة كلها أصلها وفروعها على الله؟

إذن: يمكن أن تكون هذه الآية للمفتونين في الأسباب الذين ينتظرون منها العطاء، وينسوْنَ المسبِّب سبحانه، وهذا هو الشرك الخفي.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ .. ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان] سبق أنْ تحدثنا عن الفرق بين الموت والقتل، وقلنا:

---

(١) أخرج ابن ماجة في سننه (٢١١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال قال ﷺ: «إذا حلف أحدكم فلا يقل: ما شاء الله وشئت. ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت».

إن كليهما تذهب به الحياة ، لكن في الموت تذهب الحياة أولاً ، ثم تُنقض البنية بعد ذلك ، أما في حالة القتل فتُنقض البنية أولاً ، ثم يتبعها خروج الروح . فالموت - إذن - بيد الله عز وجل ، أما القتل فقد يكون بيد البشر .

وهنا نَهْى صريح عن هذه الجريمة ؛ لأنه « ملعون مَنْ يهدم بنيان الله » ويقضى على الحياة التى وهبها الله تعالى لعباده .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٦٨) ﴾ [الفرقان] أى : حق يبيح القتل كرَجْم الزانى حتى الموت ، وكالقصاص من القاتل ، وكقَتْل المرتد عن دينه ، فإنْ قتلْنا هؤلاء فقتلُهم بناء على حَقٍّ استوجب قتلهم .

فإن قال قائل : فأين حرية الدين إذن ؟ نقول : أنت حر فى أن تؤمنَ أو لا تؤمن ، لكن اعلم أولاً أنك إنْ ارتددتَ عن إيمانك قتلناك ، فإياك أنْ تدخل فى ديننا إلا بعد اقتناع تام حتى لا تُعرِّض نفسك لهذه العاقبة .

وهذا الشرط يمثِّل عقبة وحاجزاً أمام مَنْ أراد الإيمان ويجعله يُفكِّر ملياً قبل أنْ ينطق بكلمة الإيمان ويحتاط لنفسه ، إذن : فربُّكَ عز وجل يُنبِّهك أولاً ، ويشترط عليك ، وليس لأحد بعد ذلك أن يقول : أين حرية الدين ؟

وقوله تعالى :﴿ وَلا يَزْنُونَ .. (٦٨) ﴾ [الفرقان] تحدثنا عن هذه المسألة فى أول سورة النور وقلنا : إن الإنسان الذى كرَّمه الله وجعله خليفةً له فى أرضه أراد له الطُّهْر والكرامة ، وأنْ يسكن الدنيا على مقتضى قانون الله ، فلا يُدخل فى عنصر الخلافة شيئاً يخالف هذا القانون ؛ لأن الله تعالى يريد أنْ يبنى المجتمع المؤمن على الطُّهْر ويبنيه على عناية المربِّى بالمربَّى .

لذلك تجد الرجل يعتني بولده مطعماً ومشرباً وملبساً ويفديه بنفسه ، لماذا ؟ لأنه ولده من صُلْبه ومحسوب عليه ، أمّا إنْ شكَّ في نسب ولده إليه فإنه يُهمله ، وربما فكَّر في الخلاص منه ، وإنْ رُبِّي مثل هذا رُبِّي لقيطاً لا أصلَ له ، وهذا لا يصلح لخلافة الله في أرضه ، ولا لأن يحمل هذا الشرف .

وهذا يدل على أن الفطرة السليمة تأبى أنْ يوجد في كون الله شخص غير منسوب لأبيه الحق ، من هنا نهى الإسلام عن الزنا ، وجعل من صفات عباد الرحمن أنهم لا يزنون .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) ﴾ [الفرقان] أثاماً مثل : نكالاً وزنْاً ومعنىً ، والآثام : عقوبة الإثم والجزاء عليه .

﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) ﴾

كيف نفهم مضاعفة العذاب في هذه الآية مع قوله تعالى في آية أخرى :﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

ويقولُ سبحانه : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾ [الأنعام]

الحقيقة لا يُوجد تناقض بين آيات القرآن الكريم ، فالذي يرتكب هذه الفَعْلة يكون أسْوة في المجتمع تُجرِّىء الغير على ارتكاب هذه الجريمة ؛ لذلك عليه وِزْره كفاعل أولاً ، وعليه وِزْر مَن اقتدى به .

كما جاء في قوله تعالى حكايةً عن الكافرين : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ [الزخرف] إذن : فوجود الآباء كقدوة للشر يزيد من شرِّ الأبناء ، فكأنهم شركاء فيه .

لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿٢٥﴾﴾ [النحل]

وقال : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت]

فالوِزْر الأول لضلالهم فى ذاته ، والوِزْر الآخر ؛ لأنهم أضلّوا غيرهم ، هذا هو المراد بمضاعفة العذاب .

وقوله تعالى : ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان] معنى (مُهَانًا) : حينما وصف القرآن العذاب وصفه مرةً بأنه أليم ، ومرةً عظيم ، ومرة مُهين . فالذى ينظر إلى إيلام الجوارح يقول : هذا عذاب أليم ؛ لأنه يُؤلم كل جارحة فيه ، فالعذاب أمر حِسىّ ، أما الإهانة فأمر معنوى ، ومن الناس مَنْ تؤلمه كلمة تنال من كرامته ، ومنهم مَنْ يُضرب فلا يؤثر فيه .

والخالق - عز وجل - خلق الناس وعلم أزلاً أنهم أبناء أغيار ، ليس معصوماً منهم إلا الرسل ، إذن : فالسيئة مُحْتملة منهم .

ومن تمام رحمته تعالى بربوبيته أنْ فتح باب التوبة لعباده ، لمن أسرف منهم على نفسه فى شىء ؛ لأن صاحب السيئة إنْ يئس من المغفرة استشرى خطره وزاد فساده ، لكن إنْ فتحتَ له باب التوبة والمغفرة عاد إلى الجادة ، واستقام على الطاعة ، وفى هذا رحمة بالمجتمع كله .

يقول تعالى :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

فربُّكم كريم ورحيم ، إنْ تُبتُم تاب عليكم وقَبِلكم ، فإنْ قدَّمتُم العمل الصالح واشتدَّ ندمكم على ما فات منكم من معصية يُبدِّل سيئاتكم حسنات.

وللتوبة أمران : مشروعيتها من الله أولاً ، وقبولها من صاحبها ثانياً . فتشريعها فَضْل ، وقبولها فَضْل آخر ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة] والمعنى : تاب عليهم بأنْ شرَّع لهم التوبة حتى لا يستحُوا من الرجوع إلى الله .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان] تاب وآمن لمن عمل معصية تُخرجه عن الإيمان ، فالعاصي لم يفارق المعصية إلا في غفلة عن إيمانه ، كما جاء في الحديث الشريف : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1].

ولو استحضر العاصي جلالَ ربه ما عصاه . ولتضخمتْ عنده المعصية فانصرف عنها ، وما دام قد غاب عنه إيمانه فلا بُدَّ له من تجديده ، ثم بعد ذلك يُوظِّف هذا الإيمان في العمل الصالح .

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان] فالجزاء

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم في صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .